الفصل الرابع

أقسام الأفعال واستعمالاتها

- ماض ، ومضارع ، وأمر ، هذه أقسام الفعل ولكنها تنوب عن بعضها ؟
- متى يكون الأمر للاستقبال ؟ أو للتجدد ؟ أو للمضى والاستقبال ؟
- ومتى يصلح المضارع للحال والاستقبال ؟
- وهل يتغير الفعل الماضى للأدوات الداخلة عليه ؟
- ابن القيم يرد على كبار النحاة .
- ويجعل استشهاده بالقرآن والسُّنَّة ، وفصيح الكلام .
- ويصحح ما توهم فيه النحاة مصححًا ما ذكروه .
- أدبه فى رده على العلماء ودعاؤه لهم .

obeikan.com

● **أقسام الأفعال :**

الأفعال ثلاثة : ماض ، ومضارع ، وأمر .

فالأمر : لا يكون إلا للاستقبال ، ولذلك فلا يقترن به ما يجعله لغيره، وأما وروده لمن هو ملتبس بالفعل فلا يكون المطلوب منه إلا أمرًا متجددًا ، وهو : إما الاستدامة ، وإما تكميل المأمور به ، نحو : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) .

وأما الماضى : فيصرف إلى الاستقبال بعد أدوات الشرط ، وفى الوعد والإنشاء ونحوه ، لا فى الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ (٣) .

وكقول النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها : « إن كنت ألممْتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه » ، ونظائره كثيرة جدًا .

ولا يخفى فساد تأويل ذلك بأن المعنى : إن ثبت فى المستقبل وقوع ذلك فى الماضى ؛ أفترى المسيحَ يقول لربه : إن ثبت فى المستقبل أنى قلته فى الماضى فقد علمته ؟ وهل هذا إلا فاسد فى الكلام ممتنع من العاقل إطلاقه .

وكذلك قول النبى ﷺ لعائشة : إنما أراد إن كان وجد فيما مضى ذنب فتداركيه بالتوبة .

وأما ما يصير به الماضى مستقبلاً فكقولك : إن أقمت أكرمتك ، وإن زرتنى أحسنت إليك ، فهذا ماضى اللفظ مستقبل المعنى . وللنحاة هنا مسلكان :

(أحدهما) أن التغيير وقع فى لفظ الفعل ، وكان الموضع للمستقبل ، فغير إلى لفظ الماضى ، والأداة هى التى تصرفت فى تغييره ، وهذا اختيار **أبى العباس المبرد** .

---

(١) النساء : ١٣٦ (٢) يوسف : ٢٦ ، ٢٧ (٣) المائدة : ١١٦

(والثانى) أن التغيير إنما هو فى المعنى ، والأداة وردت على فعل ماض فغيرت معناه إلى الاستقبال ، وهذا هو الصواب ؛ لأن الأدوات المغيرة للكلم إنما تغير معانيها دون ألفاظها كالاستفهام المغير لمعنى ما بعده من الخبر إلى الطلب ، وكالتمنى ، والترجى ، والطلب ، والنفى ، ونظائره .

* وينصرف إلى الحال **بقرينة الإنشاء**: كتزوجت ، وبعتك ، وطلقتك ، على أحد القولين فى هذه الصيغ . ومن جعلها أخباراً عما قام بالنفس فهى ماضية على بابها . **والتحقيق** أنها إنشاء للخارج إخبار عما فى النفس فجهة الخبر فيها لا ينافى جهة الإنشاء .

* وينصرف إلى الاستقبال بقرينة **الطلب والدعاء** ، كقولك : غفر الله لك ، وأدخلك الجنة ، وأعاذك من النار ، ونحو : عزمت عليك ألا فعلت .

* وينصرف إليه أيضًا **بالوعد عند** بعضهم ، مستشهدًا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (١) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢) ، و ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ ﴾ (٣) ، ونحوه ، وفيه نظر ظاهر للمتأمل .

* وينصرف أيضًا إلى الاستقبال **بعطفه على ما علم استقباله** ، كقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾ (٥) .

* وينصرف إلى الاستقبال أيضًا بالنفى **بلا وإن بعد القسم** ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِن أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ (٦) وكقول لشاعر :

رِدُوا فوالله لازدنا كم أبدا ما دام فى مائنا وِرد لنزال

* **ويحتمل المضى والاستقبال بعد همزة التسوية** ، نحو : سواء علىّ أقمت أم قعدت .

---

(١) الكوثر : ١ (٢) الزمر : ٦٩ (٣) النحل : ١
(٤) هود : ٩٨ (٥) النمل : ٨٧ (٦) فاطر : ٤١

والصواب أن المراد هنا المصدر المدلول بالفعل ، وهو أعم من الحال والاستقبال ؛ فلم يجيء الاحتمال من جهة الهمزة بل من جهة القصد إلى المصدر .

(فإن قلت) فلو اقترن الفعل الواقع بعد أم بلم ، فهل يصلح الماضى للحال والاستقبال ؟ أم يتعين المضى ؟

(قلت) ذهب صاحب التسهيل إلى تعيين المضى ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

والصواب : أنه لا يتعين المضى ؛ فإن المعنى سواء عليهم الإنذار وعدمه ، فلا فرق بين ذلك وبين أن يقال . سواء عليهم أأنذرت أم تركت الإنذار .

وكذلك لو كان بعد أم جملة اسمية لم يتعين المضى فى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٢) .

وإذا وقع الماضى بعد حرف التحضيض صلُح أيضًا للماضى والمستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

والصواب : أن الماضى ههنا باق على وضعه لم يتغير عنه ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾(٤) ، ويقول : هلا اتقيت الله فيما أتيت . والآية إنما نزلت فى غزوة تبوك فى سياق ذم المتخلفين عن رسول الله ﷺ ، فأخبر تعالى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كافة ، ثم وبخهم توبيخًا متضمنًا للحض على أن ينفر بعضهم ، ويقعد بعضهم .

وأصح القولين : أنه ينفر منهم طائفة فى السرايا والبعوث ، وتقعد طائفة

---

(١) البقرة : ٦ (٢) الأعراف : ١٩٣

(٣) التوبة : ١٢٢ (٤) هود : ١١٦

تتفقه فى الدين ، فتنذر القاعدة الطائفة النافرة إذا رجعت إليهم ، وتخبرهم بمانزل بعدهم من الحلال والحرام والأحكام لوجوه :

أحدها : أن الآية إنما هى فى سياق النفير فى الجهاد وتوبيخ القاعدين عنه.

الثانى : أن النفير إنما يكون فى الغزو ، ولا يقال لمن سافر فى طلب العلم : إنه نفر ولا استنفر ، ولا يقال للسفر فيه نفير .

الثالث : أن الآية تكون قد اشتملت على بيان حكم النافرين والقاعدين ، وعلى بيان اشتراكهم فى الجهاد والعلم ، فالنافرون أهل الجهاد ، والقاعدون أهل التفقه ، والدين إنما يتم بالجهاد والعلم ، فإذا اشتغلت طائفة بالجهاد وطائفة بالتفقه فى الدين ، ثم يعلم أهل الفقه للمجاهدين إذا رجعوا إليهم حصلت المصلحة بالعلم والجهاد ، وهذا الأليق بالآية والأكمل لمعناها ، وأما إذا جعل النفير فيها نفيراً لطلب لعلم لم يكن فيها تعرض للجهاد مع إخراج النفير عن موضعه .

والذى أوجب لهم دعوى أن النفير فى طلب العلم : أنهم رأوا الضمير إنما يعود على المذكور القريب ، فالمنذرون هم النافرون وهم المتفقهون .

وجواب هذا : أن الضمير إنما يرجع إلى الأقرب عند سلامته من معارض يقتضى الأبعد ، وقد بينا أن السياق يقتضى أن القاعد هو المتفقه المنذر للنافر الراجع ، والمقصود : أن (نفر) فى الآية ماض وإنما يفهم منه الاستقبال لأن التحضيض يؤذن به .

والتحقيق فى هذا الموضع : أن لفظة لولا وهلا . . إن تجرد للتوبيخ لم يتغير الماضى عن وضعه ، وإن تجرد للتحضيض تغير إلى الاستقبال ، وإن كان توبيخًا مشربًا معنى التحصيض صلح للأمرين ، وإن وقع بعد « كلما » جاز أن يراد به المضى ، كقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا جَاء أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ (١) وإن

---

(١) المؤمنون : ٤٤

يردا به الاستقبال ، كقوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (١) .

وقد ظن صاحب التسهيل :

أنه إذا وقع صلة للموصول جاز أن يراد به الاستقبال محتجًا بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، وهذا وهم منه (رحمه الله) والفعل ماض لفظًا ومعنى ، والمراد إلا الذين تقدمت توبتهم بالقدرة عليهم فخلوا سبيلهم ، والاستقبال الذى لحظه (رحمه الله) إنما هو لما تضمنه الكلام من معنى الشرط ، ففيه معنى من تاب قبل أن تقدروا عليه فخلوا سبيله ، فلم يجىء هذا من قبل الصلة ، ولو تجردت الصلة عن معنى الشرط لم يكن الفعل إلا ماضيًا وضعًا ومعنى ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ (٣) ، ونظائره .

وأما قوله ﷺ : « نضر الله امرءًا سمع مقالتى » ، فقال صاحب التسهيل : إن الاستقبال فى سمع جاء من كونه وقع صفة لنكرة عامة ، وهذا وهم أيضًا : فإن ذلك لا يوجب استقبالاً بحال ؛ تقول كم مال انفقته ؟ وكم رجل لقيته ؟ وكم نعمة كفرها أبو جهل ، وكم مشهد شهده (على) مع رسول الله ﷺ ، وإنما جاء الاستقبال من جهة ما تضمنه الكلام من الشرط ، فهو فى قوة : من سمع مقالتى فوعاها نضره الله فتأمله .

وكذلك إذا وقع مضافًا إليه حيث صلح للاستقبال إذا تضمنت معنى الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ ومِنْ حَيْثُ خرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شطْرَ المسْجِدِ الحَرَامِ ، وحيثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٤) ، فلم يأت الاستقبال ههنا من قبل (حيث) كما ظنه ، وإنما جاء من قبل ما تضمنه الكلام من الشرط ؛ ولهذا لو تجرد من الشرط ؛ لم يكن إلا للمضى ، كقولك : إذهب حيث ذهب فلان .

---

(١) النساء : ٥٦ (٢) المائدة : ٣٤

(٣) آل عمران : ١٧٣ (٤) البقرة : ١٤٤

وأما قول الشاعر :

وإنى لآتيكـــــم بذكـــر ما مضى من الأمر واستحباب ما كان فى غد

فلم تكن (كان) ههنا مستقبلة المعنى ؛ لكونها فى صلة الموصول ، بدليل وقوعها للمضى فى قوله : ما مضى من الأمر ، وإنما جاء الاستقبال من جهة الظرف الذى جعل وقتًا للفعل .

* *

● إذا نفى المضارع:

إذا نفى المضارع بلا فهل يختص فى الاستقبال ؟ أو يصلح له وللحال ؟ مذهبان للنحاة :

مذهب الأخفش : صلاحيته لهما ، ووافقه ابن مالك ، ورعم أنه لازم لسيبويه ؛ محتجًا بإجماعهم على صحة : قام القومُ لا يكون زيد ، فهو بمعنى إلا زيدًا ، ومن ذلك قولهم أتحبه ثم لا تحبه ؟ وأتظن ذلك أم لا تظنه ؟ لا ريب أنه بمعنى الحال ، وقولهم مالك لا تقبل ؟ وأراك لا تبلى ، قال الله تعالى : ﴿ وما لنا لَا نُؤْمِنُ بالله ﴾ (١) ، و﴿ ما لكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّه وقَارًا ﴾ (٢) ، و﴿ ما لِى لَا أرى الْهُدْهُدَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا لِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

وزعم الزمخشرى : أنه يتخلص بها للاستقبال ، أخذًا من قول سيبويه ، وإذا قال هو يفعل ولم يكن الفعل واقعًا فإن نفيه لا يفعل .

وهذا ليس صريحًا فى اختصاصه بالمستقبل ؛ فإن (لا) تنفى الحال والاستقبال ، وهو لم يقل لا تنفى الحال .

---

(١) المائدة : ٨٤ (٢) نوح : ١٣

(٣) النمل : ٢٠ (٤) يس : ٢٢

وإنما أراد سيبويه أن يفرق بين نفى الفعل (بما) ونفيه (بلا) فى أكثر الأمر ، فقال : وإذا قال هو يفعل أى هو فى حال فعل ، كان نفيه (ما يفعل) : وإذا قال هو يفعل ولم يكن الفعل واقعًا فإن نفيه (لا يفعل) ومعلوم أن (ما) لا يخلص الفعل المنفى بها للحال ، وسيبويه قد جعلها فى فعل الحال (كلا) فى فعل الاستقبال ؛ فعلم أنه إنما أراد الأكثر من استعمال الحرفين .

وتأمل كيف جاء نفى المضارع وهو مرفوع (بما ولا) وهما لا يزيلان رفعه لتشاكل المنفى بالمثبت ، ويقابل مرفوع بمرفوع ، والمشاكلة مهمة فى كلامهم حتى يغيروا بها بعض الألفاظ ، كقولهم : أخذ ما قدم وما حدث والغدايا والعشايا ونظائره .

وترجح الحال بدخول لام الابتداء عليه نحو : إنى لأحبك ، وأما قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ (١) ، وذهابهم مستقبل ، وهو فاعل الحزن ؛ ويمتنع أن يكون الفاعل مستقبلاً والفعل حالاً ؛ فزعم صاحب التسهيل أن هذا دليل على أن اللام لا تخلص للحالية ، واحتج أيضًا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

ولقائل أن يقول : التخلص إنما يكون باللام المجردة ، وأما إذا اقترن بالفعل قرينة تخلصه للاستقبال لم تكن اللام للحال ، وهذا (كسوف) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٣) ، فلولا هذه القرائن لتخلص للحال ، وهذا كان مع (لم) كقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا ﴾ (٤) ، فإن منعت اقتضاء لم للمضى .

وأما الآن وآنفًا والساعة ، فمخلصة للحال خلافًا لبعضهم . واحتج بقوله تعالى : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ (٥) ، والأمر إنما يكون للمستقبل وقد عمل فى الآن .

---

(١) يوسف : ١٣ (٢) النحل : ١٣٤ (٣) الضحى : ٥

(٤) المائدة : ٧٣ (٥) البقرة : ١٨٧

وأجيب عن ذلك :

بأن الآن هنا هو الزمن المتصل أوله بالحال مستمرًا فى الاستقبال ، فعبر عنه بالآن اعتبارًا بأوله كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (١) .

والصواب أن **الآن** فى الآية ظرف للأمر والإباحة ، لا لفعل المأمور به ، والمعنى : فالآن أبحت لكم مباشرتهن لا أن المعنى فالآن مدة وقوع اباشرة منكم .

وترجح الحالية بنفيه بما ، وليس ، وإنْ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (٣) .

ومثال نفيه بليس ، قول الشاعر :

ولســـــتُ وبيتِ اللهِ أرضَى بمثلهِ ولكنَّ منْ يمشى سيرصى بما ركب

وأما قوله :

فمـــا مثلُه فيهم ولا كان قَبْلَهُ وليس يكون الدهرُ ما دام بديل

فإنما جاء للاستقبال من تقسيم النفى إلى ماض وحال ومستقبل .

وقال ابن مالك : لا يخلصه النفى بذلك للاستقبال ، واحتج بهذا البيت :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليسَ يدْرِكُه والعيشُ شحٌّ واشفاقٌ وتأميلُ

وبقول أبى ذؤيب :

أودى بنىَّ وأودعونى حسرةً عنـد الرقاد وعبرة ما تقلع

وبقول النابغة يمدح النبى ﷺ :

لـــــه نافلاتٌ ما يغيبُ نوالها وليس عطاءُ اليوم ما نعَهُ غدًا

وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ منْ تلقَاءِ نَفْسِى إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَىٰ إلَىَّ ﴾ (٤) .

---

(١) الجن : ٩ (٢) الأحقاف : ٩

(٣) الأنبياء : ١٠٩ (٤) يونس : ١٥

والتحقيق فى ذلك : أن هذه الأدوات تنفى الفعل المبتدئ من الحال مستمر النفى فى الاستقبال ، فلا تنفيه فى الحال نفيًا منقطعًا عن التعرض للمستقبل ، ولا تنفيه فى المستقبل مع جواز التلبس به فى الحال فتأمله .

ويتخلص المضارع للاستقبال بعشرة أشياء :

حرف تنفيس ، أو مصاحبة ناصب ، أو أداة ترجٍّ ، أو إشفاق كلعل ، أو مجازاة ، أو نونى التأكيد ، أو لو المصدرية ، كقوله تعالى :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (١) ، ومثال الإشفاق قول الشاعر :

فأمّـا كيس فنجا ولكـن عسى يغتر بى حمق لئيم

أ . هـ

* * *

(١) القلم : ٩